

«القديس العبقري» نجم اليوبيل الفضي

أوركسترات وجوقات ومغنون وعازفون أعجوبة جمالية لا تتكررا!

بشير صفير

رحل يوهان سيباستيان باخ عام 1750. هكذا، شكّل مطلع الألفية الثالثة محطة استثنائية في تاريخ الموسيقى الكلاسيكية الغربية، إذ تزامن مع الذكرى الـ 250 لرحيل المؤلف الألماني الذي جُمِلَ وجهه كوكبنا، كما لم يفعل مؤلف آخر أو رسّاماً أو نحاتاً أو أديباً أو مسرحياً أو مهندساً. تحضّر ناشرو الأسطوانات والمهرجانات والموسيقيون وحتى الكتاب، فوضعوا الخطط للاحتفاء بالمناسبة، كل على طريقته وبحسب موقعه. بعبارة أخرى، الـ 2000 كانت سنة باخ بامتياز. في لبنان لم يكن متوقعاً من أحد إنجاز تحية محترمة إلى باخ، سوى «مهرجان البستان»، لكنه لم يفعل إلا جزئياً. عامذاك، غلب منظمو المهرجان الشتوي - الذي كان قد انطلق قبل ست سنوات - حدث حلول ألفية جديدة ثالثة، على ذكرى باخ. تهاهى إذاً العنوان العريض لـ «البستان» مع هذا الفصل الرقمي في الرونزامة الزمنية، لكن كانت ثمة التفاتة إلى ذكرى غياب مهندس الموسيقى الأكبر في البرنامج، إذ حُجِرَت حصة الأسد فيه لأعماله. بعض أمسيات تلك الدورة خصّصت بالكامل لباخ، وفي بعضها الآخر طُعم البرنامج بعمل أو أكثر من ريبرتواره إلى جانب مؤلفين آخرين. نذكر من هذه الأعمال أبرزها: الـ «ماغنيفيكات»، البرندنبورغ كونشرتو رقم 3، كونشرتو ألتى كامان، أعمال للكمان المنفرد، «كانتاتا القهوة» (وهو عمل غنائي غير ديني من فئة الـ «كانتاتا»، ذو موضوع خفيف وشعبي يتناول انتشار «أفة» شرب القهوة التركية في المجتمع الألماني في ذلك الزمن)، أعمال للأرغن، المتتالية الأوركسترالية رقم 2 وغير ذلك.

من شهدوا إطلاق الدورة عام 2000 في المؤتمر الصحافي السنوي، تفاجأوا بعدم تخصيص كامل الأمسيات لباخ، وأدركوا أن ما من

مؤلف سيحظى إذاً بهكذا شرف في المستقبل، طالما أن شيخ المؤلفين لم يفعل. أتى الجواب عام 2006، حيث قفز اسم موزار ليحتل العنوان الأساسي للدورة، في الذكرى الـ 250 لولادته. بعض عشاق «القديس العبقري» أحسّوا بالغبن وربما الإهانة. أما أتباع «العبقري الأزعر» فسجّلوا انتصارهم وناموا على حريز... فالحدث التالي التي سيشهدها العالم في ما يتعلق ببخ لن يأتي قبل سنة 2035، أي الذكرى الـ 350 على ولادته!

فرض حجم المفاجأة في أن يكون «بخ» عنوان دورة «البستان» التي تنطلق الليلة، المقدّمة الأنفة. فالـ 2018 هي، بالمناسبة، سنة الفرنسي كلود دويوسي في الرونزامة الموسيقية الكلاسيكية (مئوية رحيل أحد مؤسسي التيار الانطباعي). أما المؤلف الألماني، فلا شيء لاقته له علاقة به هذا العام... لا ذكرى ولادة ولا غياب. لا طلب (بعد) من الأمم، متحدة، لتقدّسه لدى كل الأديان الموحّدة وغير الموحّدة والسماوية وغير السماوية؛ لم يشع (بعد) النور من قبره وسط كنيسة سان توماس في مدينة لايبتيش الألمانية؛ لم يُفْرَض (بعد)، تحت مراقبة عسكرية للقبعات الزرق، بثّ أعماله ليل نهار في شوارع الأرض كلها؛ لم يكتشف العِلْم (بعد) أن باخ اكتشف سرّ الكون وترجمه إلى أصوات بديعة، نسميها، نحن البشر، موسيقى! فلماذا باخ؟ الاحتفال باليوبيل الفضي لانطلاق المهرجان الشتوي يستحق ويفرض ربما دورة مميزة، والحال هذه، ولكن ذلك لا يبرز كلباً احتلال جيش باخ «البستان» لأكثر من شهر ولـ 23 أمسية يحييها عشرات الموسيقيين (أوركسترات، جوقات، مغنون منفردون، عازفون منفردون، قادة أوركسترا...) الذين يتوافدون تبعاً، من أوروبا بشكل أساسي. كل هذه التساؤلات ها هو الجواب عليها: عندما نكون بصدد رجل بعظمة وموهبة وصدق وتفاني وإخلاص يوهان

أسعار تشجيعية للشباب

يمكن كتابة أطروحة عن علاقة الثراء بالموسيقى الكلاسيكية الغربية. عن هذه الإشكالية في الأزمنة القديمة وفي العصر الحديث. عن شبهة أنها للأغنياء فقط، ليس لناحية الماديات فحسب، بل على مستوى الذائقة! لكن، يمكن الجزم اختصاراً بأن كل هذه الأفكار المسبقة هي عبارة عن مغالطات يتحمّل مسؤوليتها طرفا الطبقة: الأغنياء (احتكار الفهم والتذوق) والفقراء (النعي والكسل). بالتاكيد، أسعار بطاقات «البستان» مرتفعة، لكن منذ وضع سنوات ابتكر منظّمه عرضين لبطاقات أرخص: الأول عبارة عن بطاقة بـ 25 \$ لمن هم دون الـ 25 سنة (Youth Card)، تتيج لحاملها شراء بطاقة بـ 10 \$ عن كل حفلة يود حضورها. شرط أن يطلبها قبل ساعة من بدء الأمسية. الثاني موجه للجميع، وهو عبارة عن بطاقة بـ 150 \$ تتيج لحاملها حضور خمس أمسيات من اختياره، شرط أن يحجز مقعده قبل أسبوع من الموعد. ثمة DJ مقيت، أتى إلى بيروت منذ فترة ليبت ضججه مقابل 500 دولار للبطاقة الواحدة. مهزلة القدر أن نشازه تزامن تماماً مع تقديم السمفونية التاسعة لبيتهوفن دون مقابل! من يود الاعتراض على تسعيرة «البستان»، عليه أولاً أن يقدم دليلاً على عدم تواجده في حفلة الـ DJ... أي DJ.



إلى عازفي هاربيكورد (أو بيانو، كبديل «عصري» لآلة العتيقة) وأوركسترات من الحجم المتوسط وجوقات كبيرة ومنشدين منفردين وعازفي كمان وتشيلو وأرغن وفلوت، إلخ... وهنا نقطة القوة التي تتمتع بها «دورة باخ» المرتقبة، إذ تخطى المستوى العام للأسماء المدعوة كل التوقعات، نسبة إلى حدث يحصل في بلد صغير (حجماً وتأثيراً عالمياً) ومجهول (اسماً ومصيراً)، يتريث

«مهرجان البستان» دورته بـ «باخ» من دون الحاجة إلى إرفاق هذه الأحراف بصفة قبلها أو بعدها لدعم أهميتها. لكن أهمية تخصيص مهرجان كامل للمؤلف الألماني، على كبرها، لا تكفي لتجعل من الدورة حدثاً موسيقياً ذا قيمة فنية عالية. فالبُعد المحوري هنا قوامه الموسيقيون الذين سيؤدون أعمال باخ الذي كتبت لأشكال موسيقية كثيرة (باستثناء الأوبرا)، تحتاج

سيباستيان باخ، لا ضرورة لمناسبة ولا لتاريخ جذاب (يوبيل ذهبي، يوبيل ماسي، مئوية، مؤناتان...) ولا لحدث كبير لتبرير تخصيص مهرجان كامل باسمه في أي بقعة من الأرض. باخ أكبر من المناسبات والتواريخ والجغرافيا. من يعرفه يعلم جيداً أن لا مبالغة في هذا التوصيف ومن لا يعرفه لم يسمع صوت الخالق بعد. إذاً، في يوبيله الفضي، عَنُون

«مهرجان البستان»: أبرز المحطات



ستيفن إسرائيلس وعائلته باخ 2/26



الرقص على النعام باخ 2/25



تتويجات غولدبرغ 2/23



القُداس الكبير 2/21



الألام بحسب القديس يوحنا 2/18



الـ «ماغنيفيكات» 2/15



Swingle Singers اليلة: 20:30

يعود تاريخ عائلة باخ الموسيقية إلى جد جد باخ الذي نعرفه (يوهان سيباستيان). غير أن الألسع موسيقياً، بعده طبعاً، هما نجلاه كارل فيليب إسمانويل وفيلهلم فريدمان اللذان يجمعهما عازف التشيلو (وقائد الأوركسترا) المخضرم ستيفن إسرائيلس مع أبيهم والمؤلف النمساوي هايدن، في أمسية أوركسترالية (مع أو بدون تشيلو)، تليها أمسية ثنائية (2/27) لباخ حصراً تشارك فيها ماغي كول (هاربيكورد).

يحرص منظمو «البستان» على تطعيم الدورات بفنون أخرى، كالمسرح والرقص والشعر، بالإضافة إلى محاولتهم تلبية رغبات الجيل الشاب، كما هي حال هذه الأمسية الراقصة التي تجمع بين موسيقى باخ (الجيد فيها أنها ستكون حية، في عزف على البيانو والهاربيكورد، بالإضافة إلى الأصوات الإلكترونية) والـ breakdance، والعرض يحمل توقيع فرقة Flying Steps الألمانية.

نصل إلى محطة للعزف المنفرد، تضمّ عملاً فائق الجمال بعنوان «تنويجات غولدبرغ» وهو في الأصل للهاربيكورد، لكن نسمعه هنا (كما درجت العادة منذ النصف الأول من القرن الماضي) على البيانو. بصراحة، اخترنا الإضاءة على هذا الموعد كرمي لعيون العمل وليس مؤديه الألماني مارتين شتادفالد. الشاب لديه تسجيلات كثيرة لباخ، بعضها جيد وبعضها لا. «تنويجات غولدبرغ» معه فيها لحظات عظيمة وأخرى ضعيفة، لكن من يدري، ربما يحقق مفاجأة سارة في الأمسية.

يفتح الأسبوع الثاني من الدورة بأمسية لعزف منفرد على الأرغن الكنسي للفرنسي Thomas Ospital (2/19) لكن يليه بعد يومين القُداس الأهم الذي تركه باخ (معروف باسم نغمته: Missa in b minor)، وربما يكون أهم قُداس في تاريخ الموسيقى الغربية إلى جانب قُداس موزار (Great Mass) وقُداس بيتهوفن (Missa Solemnis). إنه عمل ضخم وشديد الرهبة، والأداء أيضاً لجيانلوقا مرتشيانو وزملائه.

ترك باخ أعمالاً عدة من فئة الأوراتوريو الديني، أبرزها: الألام بحسب القديس متى (وهو الأضخم) والألام بحسب القديس يوحنا. كان لا بد من إدراج أحدهما في الدورة الحالية، خاصة أن المهرجان يقام في فترة قريبة ليتوججياً من هذه الأجواء. وقع الخيار على الألام بحسب القديس (أو إنجيل) يوحنا. إنها قمة موسيقية في تاريخ البشرية، ستؤديها المجموعة ذاتها المذكورة في الموعد السابق.

بعد الافتتاح، ننتقل في الليلة التالية إلى الجديدة في التعاطي مع مؤلف بحجم باخ. للأخير عشرات الأعمال الإنشادية الدينية وستشهد الأسابيع المقبلة أداء أبرزها. البداية مع Magnificat الذي يشارك في تقديمه أربعة مغنين منفردين بالإضافة إلى الجوقة والأوركسترا بقيادة الإيطالي جيانلوقا مرتشيانو. على البرنامج أيضاً متفرقات وعملان كاملان هما كانتاتا شهيرة (BWV 147) والكونشرتو الخامس للهاربيكورد والأوركسترا.

سألنا المنظمين خلال المؤتمر الصحافي عن الأمسية الافتتاحية والسبب وراء عدم تكريسها لعمل كبير وأصلي لباخ، بدلاً من برنامج يحوي توليفاً لمقتطفات، أتى الجواب واضحاً: الافتتاح يحضره مسؤولون رسميون وأردنا حفلة «خفيفة» مراعاة لعدم انخراط معظمهم بالسمع الجذّي. غير أن ملاحظتنا لا تطل على مستوى الأمسية الفني التي سنسمع فيها أداءً مذهلاً لهذه الفرقة (سبعة مغنين) التي تنقل أعمالاً من شكلها الأصلي إلى تركيبة A capella (أداء صوتي بدون مرافقة آتية).